ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:05، العدد:01 (2021)، ص360-372

أضواء على مخطوط رسالة الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي إلى أولاد أمبارك في القرن التاسع عشر

Spotlight on the manuscript of the letter of Sheikh Sayed Muhammad al-Khalif ibn al-Sheikh Syed al-Mukhtar al-Kunti to the children of Embark in the nineteenth century

آدب ولد سيد أمحمد
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
a1adouba@yahoo.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/05/29
تاريخ القبول:
2021/06/09

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الحروب القبلية
- ✓ كنته
- ✓ موريتانيا
- ✓ الصحراء

الملخص:

إن تحقيق المخطوطات يعتبر أهم إنجاز للدارسين والباحثين قصد كتابة سليمة للتاريخ العربي الإسلامي بصورة عامة والتاريخ الموريتاني بصفة خاصة، وذلك نظرا لكثرة المخطوطات وتنوعها وإلغاء الضوء على المسائل الغامضة منها، وذلك يتطلب إعدادها وتنقيحها وغربلتها لجعلها في متناول الجميع من باحثين وطلبة إلى غير ذلك، إن إهمال دراسة وتحقيق مخطوطاتنا هو اغتيال لوجداننا الحضاري العميق، لاسيما المخطوطات التي تعالج الأوضاع السياسية السائدة آنذاك وتهتم بالإصلاح السياسي والسِلم الأهلي للمجموعات القبلية في الصحراء الكبرى، إن النص الذي قمنا بتحقيقه من النصوص النادرة التي تهتم بالواقع السياسي للمجموعات القبلية في بلاد شنقيط، ورسالة المخطوط تدخل في إطار عدة رسائل دأب الشيوخ الزاوية الكنتية على تدبيجها وإرسالها قصد الإصلاح، وذلك راجع إلى خصائص فكر الإصلاح والسياسة لديهم.

Article info

Received:
29/05/2021
Accepted:
09/06/2021

Key words:
- ✓ Tribal wars
- ✓ Kintah
- ✓ Mauritania
- ✓ Desert

Abstract:

The realization of manuscripts is considered the most important achievement for scholars and researchers in order to properly write the Arab-Islamic history in general and the Mauritanian history in particular, due to the abundance and diversity of manuscripts and the elimination of light on the ambiguous issues thereof, which requires preparing, revising and filtering them to make them accessible to everyone, including researchers and students, etc. The neglect of study and investigation Our manuscripts are an assassination of our deep cultural sentiments, especially the manuscripts that deal with the prevailing political situation at the time and are concerned with political reform and civil peace for tribal groups in the Sahara Desert. The text that we have investigated is from rare texts that are concerned with the political reality of tribal groups in the country of Chinguetti, and the manuscript letter falls within the framework of several letters of perseverance. The Kantian Zawiya sheikhs wanted to dedicate it and send it in order to reform, due to the characteristics of reform thought and their politics

مقدمة

إن المخطوطات هي كنزنا الثقافي المكتوب وأهم مكونات تراثنا عموما والمصدر الأول لتاريخ بلادنا السياسي والثقافي والاجتماعي، وقد كانت المدن ثم المحاضر البدوية مركزا لهذه العملية، والذي شكل استثناء ثقافيا حيث لم تظهر ثقافة مكتوبة في وسط بدوي متنقل إلا في هذه البلاد، إذ ظلت البداوة كما يقول ابن خلدون عنوان الجهل.

ويدل على ما وجد من هذا التراث المخطوط على أنه جاء في فترة متأخرة بعد دخول الإسلام للبلاد وسيادة اللغة العربية الفصحى في مجال الدرس المحظري، وقد نشأت عملية التدوين هذه جراء تمثل الموريتانيين الثقافة العربية الإسلامية، وشكلت المحاظر الموريتانية مهدا لهذه الحركة العلمية النشطة وما رافقها من تأليف في مختلف العلوم، إلا أن هذا الكم الهائل الذي خلفه لنا أجدادنا غير معروف وغير موثق، وما نشر منه وأوثق لازال محدودا ولا يتعدى بعض الجهود الفردية قام بها مؤلفون موريتانيون وبعض الكتابات المحصورة التي لم تنشر بعد كالرسائل الجامعية، والحقيقة أن تراثنا الشنقيطي أو الموريتاني لا يقل شأنا عن تراث الأمم الأخرى، وهذه المخطوطات من أهم مكونات تراثنا الحضاري العريق ومن أوسعه انتشارا في مختلف أنحاء البلاد، حيث لا يكاد يخلو بيت أو عريش أوخيمة من مخطوطات مهمة[1].

وعلى الرغم من أهمية هذه المخطوطات التي حفظت تاريخ هذه البلاد التي عاشت حقبا تاريخية مظلمة، لولا هذا التراث النادر لم يعرف عنها شيء، فان ظروف حفظها سيئة وأدت عوادي الزمن إلى تلف الكثير من هذه المخطوطات ولاسيما أنها تتعرض لمخاطر جمة كالتهريب والتلف والضياع وحتى الاندثار وتحت وطأة العوامل الطبيعية، ضف إلى ذلك أن أغلب المخطوطات لازال حبيس الصناديق العتيقة نظرا لعدم وعي أصحابه بأهميته الثقافية أو لانعدام وسائل لعرضه على العموم، وعلى هذا الأساس قامت الدولة بإنشاء مؤسسة وطنية مكلفة بحفظ التراث الثقافي أطلقت عليها المعهد الموريتاني للبحث العلمي سنة 1975م وقد تمكنت هذه المؤسسة من جمع رصيد هائل من المخطوطات وقد اعتمد هذا المعهد خطة استعجالية منذ نشأته لإنقاذ المخطوطات واقتناءها مجانا أو شرائها فتم التنازل عن آلاف المخطوطات القيمة وحتى مكتبات كاملة مقابل ثمن زهيد، كما اتبع المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية نفس المنهج وحصل على مجاميع هامة من المخطوطات، وانطلاقا من هذا جاء اختيارنا لدراسة مخطوط رسالة الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي إلى أولاد أمبارك للمساهمة ولو بقسط قليل في إحياء تراث هذا البلد، وذلك بإخراج نصوصه التاريخية المهمة التي كتبها أسلافنا من الآباء والأجداد إخراجا يستدعي مقاييس الدراسة العلمية، مما يجعلها جاهزة أمام الباحثين والمؤرخين المختصين في هذا المجال ليكتبوا تاريخ بلدهم من منابع تراثهم، خاصة إذا علمنا أن المخطوطات الموريتانية من أكثر مدونات التراث العربي حاجة أن تحقق وتدرس وتقدم للاستفادة منها والوصول من خلالها إلى الهدف المنشود! ويرجع اختيارنا لدراسة الرسالة إلى:

-أن الرسالة وثيقة تاريخية مهمة تعكس بكل وضوح الأوضاع السائدة في الحوض آنذاك.

–ندرة هذا النوع من الرسائل المخطوطة التي تهتم بالإصلاح السياسي والسلم الأهلي للمجموعات القبلية في بلاد شنقيط عموما وفي بلاد الحوض خصوصا.

– قيمة النص إذ يمثل نوعا من العلاقات والتواصل بين مؤلف المخطوط والمجموعة القبلية.

– رغبتي أن لا يضيع المخطوط، وإجلاء غوامضه وما يحتوي عليه إذ يعتبر إبرازا لما بذله أسلافنا من العلماء في حفظ السلم والتوازن الأهلي والسهر على المصالح العامة للمجتمعات الصحراوية.

وقد عدنا في هذه الدراسة إلى نسختين من المخطوط:

– الأولى رمزنا لها ب (أ) وقد حصلت عليها مصورة من مركز الشيخ سيد المختار الكنتي للبحث والتوثيق بمدينة كّاوه بجمهورية مالي الشقيقة.

– الثانية رمزنا لها ب (ب) وحصلت عليها من مجموع الرسائل الشيخ سيد محمد الخليفة في زاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بنواكشوط. ونسختين تكاد تكون متطابقتين وكاملتين وحجمهما متوسط.

وقد اتبعت في دراسة مخطوط الرسالة الخطة التالية:

أولا: الكلام عن مولد والنشأة مؤلف مخطوط الرسالة واستدعى ذلك نبذة كاملة عن حياته وأدواره المختلفة بالاعتماد على ما تيسر من المصادر والمراجع التي تناولت جزءا من حياته ومراحل دراسته العلمية ومؤلفاته وآثاره.

ثانيا: نبذة عامة عن المرسلة إليهم وقد تطلب ذلك الحديث عن إمارة أولاد أمبارك والحياة العامة فيها.

ثالثا: أهم مضامين مخطوط الرسالة.

1. ترجمة مؤلف الرسالة

هو الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار بن احمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن سيد أعمر الشيخ بن الشيخ سيد احمد البكاي بن الشيخ سيد امحمد الكنتي بن علي بن يحي بن عثمان بن يهس بن ورد بن يعقوب بن العاقب بن عقبة بن نافع[2]، يلقب ب الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي ولد سنة 1175هجري الموافق 1765م بمنطقة أزواد شمال تنبكتو التي قضى معظم طفولته بها إلى جوار والدته، وقد كانت هذه المنطقة القاعدة المركزية لقبيلة كنته منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي[3].

ولقب الكنتي هو نسبة الى قبيلة كنته، وكان أول من حمل هذا اللقب من أجداده هو سيد امحمد الكنتي بن علي وقد أكتسبه من اسم جد أمه أهوى بنت محمد العالم بن كنت بن زم، زعيم قبيلة أبدو كل الصنهاجية[4].

نشأ الشيخ سيد محمد وسط الزاوية الكنتية وتربى في كنف والده في بيت من أكبر بيوتات العلم والسيادة في غرب الصحراء، ولا يعرف عنه الشيء الكثير، غير أن ورعه وعلمه قد جذبا إليه انتباه والده، ولهذا اصطفاه ليخلفه عند موته عام 1811 م[5].

ولم تكن هذه الخلافة تقتصر على مسؤولية زعامة الطريقة القادرية بالصحراء والسودان الغربي والأوسط فقط، بل تعدتها لتشمل مسؤولية عشائر كنته، ومن بين الأسباب التي جعلت والده وشيخه الشيخ سيد المختار الكنتي يختاره ليكون خليفته ما يلي:

أولا: الورع والتقوى الذي كان يتميز به دون باقي إخوته، فقد ذكر بول مارتي أن ورعه ونبوغه أجتذب انتباه والده ولهذا اصطفاه ليخلفه بعد موته.[6]

ثانيا: كونه عالما جليلا وصوفيا متبحرا أخذ عنه علماء كثيرون.[7]

ثالثا: مكانته المتميزة لدى قبائل كنته والقبائل الأخرى، حيث كان يتدخل للإصلاح بين ذات البين بين مجموعة من القبائل، كما فعل حين أصلح بين رئيس لبرابيش علي بن محمد بن رحال وأبي بكر بن الشين الترمزي سنة 1205 هـ.

رابعا: إتباعه سمت شيخه الوالد، وتتبعه لجميع خطواته ويظهر هذا الأمر جليا من خلال الرسائل التي تبادلاها فيما بينهما خاصة أثناء دخول المؤلف سلك الرياضة الروحية والتكوين العلمي.[8]

يقول بول مارتي عنه: "**أن له نفسية متفتحة ومثقف شديد الذكاء، ويخلده التاريخ بمظهر أكثر الوجوه جاذبية**"[9]. كان الشيخ سيدي محمد فعلا خليفة لوالده في العلم والورع والتصوف فهو عالم جليل وشيخ صوفي ذو مكانة مرموقة وعلم من أعلام موريتانيا ذو صيت واسع وتأثير عميق[10].

وقد بلغت الزاوية المختارية أوج عطائها المعرفي في هذه المرحلة على يد والده الشيخ سيد المختار الكنتي الكبير، فأفاد منه كثيرا وتخرج في سائر الفنون والعلوم، وكان من مظاهر هذه المرحلة الزاهية من حياة الزاوية القادرية المختارية الكنتية، ذلك الإقبال الذي عرفته من لدن الطلاب النابهين والعلماء العاملين للقاء أستاذهم وشيخهم المختار الكنتي الكبير، ولم يكن مترجمنا ليضيع هذه الفرصة الثمينة للاستفادة من هؤلاء الشيوخ الوافدين من شتى البلدان، ولا تذكر المصادر شيئا من حياته الأولى وطلبه للعلم، وربما كان ذلك راجعا إلى أن المترجم له لم يصنف أي شيء حول سيرته الذاتية، كما أنه لم يرحل في طلب العلم إلى أي جهة من جهات البلاد الشنقيطية، يتضح ذلك من خلال ترجمة العالم الولاتي المحجوبي في مصنفه المشهور: "منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور قال عنه: "**كان** رحمه الله **تعالى من أولياء الله العارفين...، كاملا، تقيا، عابدا، ورعا، زاهدا، عالما، فقيها، جمع بين الشريعة والحقيقة، له كرامات كثيرة وخوارق وعادات، وكان صوفيا أديبا، لبيبا، عاقلا، فطنا، وكان يقوم الليل كله، ذا جد واجتهاد ولزوم وأذكار، اخذ العلوم والأدب عن أبيه وشيخه سيدي المختار، جمع العلوم كلها: فقها وحديثا وتفسيرا ..، قام بعد أبيه بتربية المريدين وجلب المنافع للخلق، وكان كريما سخيا عفيفا**" [11].

للشيخ سيد محمد الخليفة عدة تصانيف كثيرة والمتداول منها:

- إرشاد السالك إلى أقوم المسالك في الفقه.

- علم اليقين وسنن المتقين لحسم الإتاوة المزورة بحق المستحقين في الفقه.

- الروض الخصيب: شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب لوالده.
- شرح الأسرار.
- الأجوبة الفلانية في الفقه.
- الشرح الصغير المسمى كفاية الكبير عن الشرح الكبير.
- الفوائد النورانية في شرح "الاسم الأعظم" نشره تزويرا باسمه الطوخي الفلكي(مصري) تحت عنوان "الاسم الأعظم".
- العقد النظيم في أقوال العلماء في الاسم الأعظم.
- الرسالة الغلاوية.
- الطرائف والتلائد، من كرامات الشيخين الوالد والوالدة.
- منح الفعال وهو نظم لورقات إمام الحرمين الجويني في الأصول.
- ترجمان المقال شرح منح الفعال في أصول الفقه.
- الوسيلة الكبرى في إصلاح الدين والدنيا والأخرى.
- الفتحات اللدنية: الاشعريات في التصوف.
- مهجة النفوس في علم الكلام.
- اقليد الكنوز على ما في الياقوت من الرموز.
- الفتوحات الدنياوية الاشعريات في شرح الصلاة الناصرية الدرعية.
- بغية النص.
- النصيحة المحمودة والعظة المصمودة (نظم في التوجيه).
- فتح القدوس (نظم لكتاب الشموس الاحمدية لوالده في التوجيه).
- نظم مثلث خالي الوسط في أسرار الحروف.
- رسالة الى مريد في التصوف.
- جنة المريد في التصوف.
- السلم الأسني إلى أسماء الله الحسنى في التوحيد.
- كتاب الأسرار في التصوف.
- الإشارات الإرادية في التصوف.
- الصوارم الهندية في حسم دعاوى المهدية
- أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام (أدب الملوك)
- السراج النفيس في التصوف
- طرد الذم عن تباك والشم في الفقه.

- ديوان شعر.

-مجموعة من الرسائل[12].

وله كذلك وقد يكون بعضها لأبيه وكلها في خزانة الرباط " **الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وحقائق الأوراد** " والأجوبة المهمة لمن له في أمر دينه همة إلى غير ذلك[13].

توفي على إثر مرض ألم به، بسبب انتشار جائحة من الحمى يوم العاشر من مايو سنة 1242هـ/1826م ودفن إلى جانب والده في بوالأ نوار، وهو بئر واقع على مسافة 200 كلم شمال بمبا وعلى مسافة 100 كلم جنوب المبروك وقد حول صلاحه هذه المنطقة إلى مكان يقصد للزيارة[14]. ومن خلال القصائد التي مدح بها العلامة ابن انبوجه التيشيتي الشيخ سيدي محمد الخليفة تتضح المكانة الأخلاقية الرفيعة والمتميزة التي كان يتمتع بها، ومنها قصيدته من البحر الطويل وهذه بعض أبياتها:

منيب إلى المـــولى الجليل وشـــأوه إلى العرف والفعـــــل الجميل بعيد

له المجد عـــرش والسماحة والتـقى جليساه صفح إن حفـــاه بـــلـــيد

أبا السيد المختار جزت المـــدى فهل بمثلك أيـــــام الزمـــان تجـــــود

وهل لي حظ يغـــلب الدهر فـــيك لناحيتي نحـــــو الوصول رقـــيد

قصدتك يا قطب الوجود فـليس لي ومجدك مجـــد خلفته جـــــدود

فصيـــــتك صيـــت شاع في كـل من السؤدد العالي وأنت وحـيد[15]

2. المرسلة إليهم

أولاد أمبارك: يراد بأولاد أمبارك أبناء أمبارك بن امحمد بن عثمان بن مغفر، كانت لهم عند مقدمهم إلى بلاد شنقيط جبايات ومغارم بتيرس، ثم بآدرار والگبلة، قبل أن يستوطنوا منطقة تگانت في صدر القرن الحادي عشر للهجرة، ويفرضوا سيطرتهم على قبائلها[16]، عرف عنهم أنهم أهل أبهة عظيمة وكرم وعدل[17]، ينتسبون إلى القبائل المغفرية الحسانية وهم من أصل عربي يعود للهجرة الحسانية إلى البلاد الموريتانية في القرن الخامس عشر، وجدهم مُبارك هو الحفيد الخامس لحسان وذلك استنادا إلى الرواية التاريخية، كان امبارك يقود الحروب خلال القرن السادس عشر في موريتانيا العليا وتيرس والذي ستتولد عنه قبيلتا أولاد محمد (باحمد) وأولاد مُبارك[18]، ويبدو أن هبوط أولاد أمبارك إلى الحوض في بداية القرن الثامن عشر كان بتوجيه من زعمائهم الذين تفرقت ذريتهم في تخوم موريتانيا والساحل مثل محمد الزنا كي جد (جزء من) أولاد أمبارك والغويزي جد أولاد الغويزي وعمر العبيدي جد العبيد اتولوديكات وأولاد أحمد بن أعمر[19].

تأسست إمارة أولاد أمبارك في بلاد الحوض وما يلاصقه من بلاد السودان "**مالي**" سنة 1124هجري1712م بعد انتصار أولاد أمبارك وحلفائهم على قبائل أولاد بوفايدة وحلفائهم في معركة "**كساري الرحى**" الشهيرة في بلاد الحوض، وبانتصار أولاد أمبارك في كساري توطد ملكهم في الحوض، وبدأ تحكمهم في موارد الإقليم التجارية والرعوية وفي فترة وجيزة رسخ هنون بن بهدل مؤسس الإمارة ملك أولاد أمبارك في باغنة، بعد أن توطدت سلطتهم في الحوض، كما تميزت فترة ملك ابنه أعمر (1155-1171هجري/1742-1757م)بتركيز السلطة في يد ذرية بهدل التي أصبحت منذ تلك الفترة أسرة السلطة العامة في أولاد أمبارك[20]، وقد بلغ أولاد أمبارك من القوة والهيمنة درجة أنهم تخلو عن لقب الأمير رسميا واتخذوا بدله لقب السلطان لكن التجربة السياسية لهؤلاء السلاطين لم تنضج إلا في عهد أعلي ولد أعمر(1171-1211هجري/1758-1779م) الذي وطد سلطنة أولاد أمبارك بعد إقصاء عمه أعل الشيخ الذي غلبه وطرده الى بلاد اهل ماص من بنبارة السودان فمات بها وذلك بعد وقائع بينهما وأمور يطول شرحها[21]، وقد شهدت فترة أعلي انتشار الرخاء والعدل في عموم الحوض ضمن نطاق المجال الأميري المعروف محليا باسم "**مجال تيكيفيت**" وهي ورقة من شجر معروف كان نطاق انتشاره يضم بلاد الرقيبة وبلاد الحوض عموما، وقد وصفه صالح بن عبد الوهاب بقوله: "**كان أعلي بن أعمر هذا أرفع ملوكهم (أولاد أمبارك) ذكرا وأنفعهم للمسلمين طرا وأطولهم في الملك مدة وأكثرهم عددا وعدة**"[22]، ونتيجة لطول عهده وشيوع الأمن فيه أصبحت فترة حكمه مقياسا زمنيا لتحديد "**تواريخ وفيات الأعيان من العلماء ومشايخ الإقليم**"، ولضمان استمرار الرخاء اتبع هذا الأمير نظاما أمنيا صارما كاد يقضي على أسباب النزاعات والحروب، والدليل على ذلك أن المصادر المحلية لا تذكر أكثر من وقعتين في بلاد الحوض طيلة فترة حكمه التي دامت زهاء أربعين سنة[23]، ثم تلاه ابنه أعمر ولد اعل ولد أعمر ثم ابنه محمد آماش وهو أمير قومه يوم شلم وكان مسرفا في الدماء ثم تلاه أخوه أعل وكان من خيار ملوكهم[24].

وخلال عهد ازدهار الإمارة(1171-1244هجري/1758-1829م) تعاظمت سلطنة أولاد أمبارك بفعل تنامي قوتهم العسكرية وشيوع الرخاء الاقتصادي وتراكم الثروة والموارد البشرية في مجالهم الأميري وتدل شهادة مونكوبارك خلال هذه الفترة على ازدياد نشاط القوافل التجارية المارة من خلال بلاد أولاد أمبارك قادمة من المغرب (الشمال) أومن السودان (الجنوب) ومن هذه القوافل تلك القادمة من المدن الصحراوية (ولاتة، تيشيت، ودان، شنقيط)، وقد استفاد أرباب هذه القوافل من الإعفاءات الضريبية التي كان أولاد أمبارك يقدمونها إلى كبريات قبائل الزوايا وللأسر العالمة والشريفة في المدن والبوادي، بينما كان الأمراء المباركيون يجبون المداراة على النطاقات السودانية التي يحمونها مثل بلدة "**زارا**" ذات الأهمية التجارية للمدن الصحراوية خلال القرن السابع عشر الميلادي إلى الثامن عشر[25].

شهدت إمارة أولاد أمبارك هزات عنيفة تمثلت في استقلال إدوعيش عن نفوذها وتأسيس إمارة خاصة بهم في تكانت وأجزاء من لعصابة في عهد رئاسة امحمد شين ولد بكار بن أعمر سنة (1175هجري/1762م)

ورغم ما مثله هذا الحدث من تأثير على قوة ونفوذ أولاد أمبارك إلا أنهم وجدوا في التوسع جنوبا في الأقاليم السودانية ما عوض الإمارة الخسارة المترتبة على انفصال إدوعيش في تكانت، كما شهدت الإمارة صراعات داخلية مريرة انتهت بفرز ثلاثة أجنحة متصارعة تتقاسم النفوذ داخلها ،هي مجموعة فونتي ومجموعة أولاد الفحفاح بالإضافة لمجموعة أهل بوسيف ولد أحمد وأهل هنون بهدل التي تمثل النواة الحقيقية للإمارة ومركز قيادتها.

3.أهم مضامين المخطوط

المخطوط الذي بين أيدينا عبارة عن خطاب توجيهي للشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار إلى أولاد أمبارك وخصوصا جناح (أبناء أحمد بن هنون العبيدي الذي يطلق عليهم الإمارة العامة)[26]، وهذا البيت هو واسطة عقد أولاد امبارك وفيه رئاستهم العامة، ولأحمد بن هنون العبيدي ستة أبناء هم: بوسيف وعثمان وأعمر وهنون وامحمد والمختار، وبيتهم في بوسيف بن أحمد و**يطلق عليهم أولاد عيشه.**

والمراسلة يرجع تاريخها إلى زمن إمارة محمد آماش ولد أعمر ولد أعلي ولد أعمر (1809م – 1820م) في الربع الأول من القرن التاسع عشر ميلادي، لأن مؤلف الرسالة نفسه أرسل رسالة إلى الأمير محمد آماش بخصوص الفتنة الكبرى التي حدثت في الحوض في هذا التاريخ يطلب منه إصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة في مملكته (أولاد داوود– لادم).

بدأ المؤلف رسالته على عادة أسلافه بحمد الله تعالى والصلاة على الرسول الكريم في أسلوب قوي وجيد ليصل إلى تحديد المعنيين بالخطاب (أولاد أمبارك) وخصوصا "**جناح أبناء أحمد بن هنون العبيدي**" وهم زعماء أحد أجنحة إمارة أولاد أمبارك، بعد ذلك عرج على سبب إنشاء رسالته الذي يعود إلى الفتنة الكبرى التي ضربت الحوض، وأهم المضامين التي تناولتها الرسالة، النصيحة، وقف الحرب، إصلاح ذات البين، العدل والسؤدد، الإحسان، والمسؤولية، وتوحي هذه الرسالة بأصالة في الرأي وتُنبِه إلى دور العالم في المجتمع.

ولا يفوتنا هنا أن مؤلف الرسالة الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار ينتمي إلى مدرسة فكرية سياسية مهتمة بالارتقاء بواقع المجتمعات الصحراوية في حفظ السلم والتوازن الأهلي والسهر على المصالح العامة للمجتمعات الصحراوية، والزاوية الكنتية التي ينتمي إليها كانت علاقاتها بالقبائل الحسانية في مجال أرض البيضان تتراوح بين التحكيم والشراكة الفعلية الناتجة عن تحول إلى مستوى أعلى من دور قبائل الزوايا التي ظلت تبسط رداء المشروعية على رؤساء حسان إلى مشاركة مباشرة في تولية الأمراء والرؤساء من خلال التدخل في صراعات البيوتات الأميرية وخلق آليات التوازن بين القوى الحسا نية من أزواد إلى تكانت فالحوض والشمال، ولم يكن هذا الدور مقصورا على وظيفة التحكيم ،التي درسها رواد النظرية الانقسامية التجزيئية في أبحاثهم حول دور المرابطين والصلحاء في المغرب، بل كان أوسع مدى وأقوى فاعلية ، وهو ما تكشف عنه رسائل الشيخ سيد المختار الكنتي إلى المعنيين[27]، لقد اهتم الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار بأزمة الحوض (الفتنة) انطلاقا من خلفيته الإصلاحية كما قلنا حيث عمد إلى إرسال عدة رسائل إلى جميع الأطراف

المباشرة وغير المباشرة في الحرب والنزول بكامل ثقله من أجل وقف هذه الحرب مستخدما مكانته الدينية وحنكته السياسية العميقة واطلاعه الواسع على خفايا الصراع، وذلك انطلاقا من إدراكه الدور المحوري الذي يمكن أن يلعبه جناح أولاد أحمد بن هنون العبيدي في المساعدة على وقف الحرب بين القبيلتين" **أولاد داوود ولادم**" إن هم أرادو ذلك بالفعل نظرا لما يتمتعون به من وزن سياسي وعسكري ومكانة مرموقة لدى الأطراف المتصارعة. فيقول: "**بسم الله محق الحق ومجله ومبطل الباطل ومذله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وأهله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم حشر الخلق لفصله. إنه من عبد ربه الغني به محمد ابن المختار إلى خاصته من أولاد أمبارك من يرجو لهم الإحاطة بعناية الله تعالى والتدارك، أبناء أحمد بن هنون العبيدي**" [28]. ويقول في موضع آخر: "**قد بعثت إليكم بكتابي، فإذا انتهى إليكم فاجنحوا إلى السلم فيما بينكم ،وبين إخوانكم ، فالصبر على سنان الإخوان خير من الصبر على زجاج الأعداء...واعلموا أنكم يا أهل هنون العبيدي إنما سدتم إخوانكم من أولاد محمد الزنا كي بالتحمل لجفائهم ، والإغضاء على زلاتهم، والحلم على سفيههم ،والإحسان إلى العام والخاص منهم ، وإلا فهم أشقاء دونكم ، ولا أرى إلا أن تلك المعاني ذهبت منكم ولم يبق إلا الاستطالة والأبهة ، وتلك آفة أولي الرئاسة من قبلكم التي تقعد بهم عن المراتب ، وترمي بهم أقبح المراتب** "[29]. ويقول مرة أخرى: "**وإني لأدعوكم إلى إنهاء الشحناء فيما بينكم والحمل لغاشيتكم[30] على الصلح فيما بينها وبين أولاد داوود...واستسلمتم لما يحويه كتابي هذا، فإني لزعيم لكم بعد الله تعالى لصلاح بالكم واستقامة أحوالكم، وإن خالفتم ذلك، فستعلمون ماسينا لكم ...وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** "[31] .

تعتبر هذه الرسالة نموذجا من رسائل الإصلاح السياسي في استتباب الأمن والسكينة العامة وانتظام أحوال القبائل والجماعات وقيام الرؤساء والأمراء بالعدل والإحسان في مجتمع السيبة من أهل الحوض، الذي عاب الشيخ سيد محمد أهله على ما جلبوا عليه من صراعات وفتن، حيث يستخدم الشيخ سيد محمد علاقاته مع أولاد أمبارك وخصوصا مع السلطان محمد آماش الذي تتلمذ عليه وأصبح من مقربيه من أجل حملهم على وقف الحرب داخل إمارتهم وبين قبيلتين من قبائلها، لما في ذلك من التزام بحدود الشرع وتحقيق السلم الأهلي، ولا ينسى كذلك بتبصيرهم بالمخاطر المترتبة على إضعاف الإمارة مما من شأنه فتح شهية المتربصين بها، وقد تكللت تدخلاته بين الأطراف بالنجاح بإيقاف الحرب وجنحت منطقة الحوض للسلم.

تعتبر ظاهرة الحروب والفتن القبلية من أبرز الظواهر الإفريقية، إذ لا يكاد يخلو إقليم من أقاليم القارة الإفريقية من صراع أو حرب أهلية عنيفة كانت لها آثارها العميقة ليس فقط على الحياة السياسية وإنما على كافة مناحي الحياة في عموم القارة، "**إِعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْواعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تزل واقعة في الخليقة منذ بَرَاهَا الله وأَصْلُهَا إِرَادَةُ انْتِقَام بَعْضِ البشر من بعضٍ ويتعصّب لكلّ منها عصبيّته أَهْلُ عصبيّتهِ فإذا تذامرو لذلك وتوافقتِ الطّائفتان إحداهما تطلب الأنتقام والأخرى تُدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل والسبب هذا الانتقام في الأكثر إمّا غيرةٌ ومنافسةٌ**"[32].

ظلت القبائل تتناحر في الصحراء لا وازع لها ولا رادع، فإذا لم تجد القبيلة من تحاربه حاربت نفسها، فانشطرت فريقين يختصمان ويقتتلان ... لم تكن الحرب التي تحدث بين القبيلة والأخرى تحتاج إلى البحث الموسع عن اسبابها، فعادة ما تكون أسبابها تافهة، كملاحات بين رجلين أو هزل يؤول إلى حد قاتل ، أو نزاع على رقعة من الأرض، لوم تكن الحروب تحتاج إلى أسباب وجيهة لتندلع، فقد تعود أهل الصحراء إضرام النار بدون شرارة، وكانت الحروب ظاهرة اجتماعية لصيقة بالمجتمع الصحراوي الموريتاني حتى كأنها جبلة فيه لما غلب عليه من حب الحرية والنفوذ ...[33]، لقد أثخنت الحروب المجتمع الصحراوي ونتج عنها دمار كثير[34].

من خلال همومه الإصلاحية ومحافظته على السلم الأهلي نزل الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي بكامل مسؤوليته قصد وقف الأزمة حيث بعث برسائل على جناح السرعة إلى جميع الأطراف المباشرة وغير المباشرة المتنازعة في الحرب، وذلك راجع إلى خصائص فكر الإصلاح والسياسة لدى علماء كنته عموما ولدى سيد محمد الخليفة خصوصا، مستخدما وزنه الديني وحنكته السياسية العميقة واطلاعه الواسع على خفايا الصراع، وقد راسل المجموعات الثلاث التي لها علاقة بالحرب(أمراء أولاد أمبارك) (أولاد داود والجماعات المتحالفة معهم) (لادم وطلبتهم المتحالفين معهم).

لم يغب عن بال مؤلف الرسالة هموم المجتمعات القبلية، وقد وجد نفسه في مواجهة كم هائل من التحديات والتناقضات يفرض على العلماء ورجال الإصلاح مواجهته وبلورة مقاربات إصلاحية تستثمر العلم والفكر والتربية لوقف التأثيرات السالبة لهذه التحديات والتأسيس الأرضية التي يمكن من خلالها ترميم الإجماع الأهلي، وبسط السلم والأمن وازدهار العلم تمهيدا للإصلاح السياسي، وإصلاح واقع الإمارات الحسانية القائمة في موريتانيا والتي تتنزل رسالتنا التي بين أيدينا في هذا المنحى وذلك عبر ترشيد ونُصح أولاد أمبارك بإشاعة العدل وتجنب الاقتتال الداخلي، فكانت رسالة المخطوط والتي حملت في ثناياها تواصلا إيجابيا وترشيدا سياسيا واجتماعيا وفكريا ينبئ عن الوعي وسعة الاطلاع وعمق الطرح لدى أحد رموز الزاوية الكنتية.

خاتمة

يعتبر مخطوط الرسالة نموذجا من رسائل الإصلاح السياسي في استتباب الأمن والسكينة العامة وانتظام أحوال القبائل والجماعات وقيام الرؤساء والأمراء بالعدل والإحسان في مجتمع السيبة من أهل الحوض، الذي عاب الشيخ سيد محمد أهله على ما جلبوا عليه من صراعات وفتن ، حيث يستخدم الشيخ سيد محمد علاقاته مع أولاد أمبارك وخصوصا مع السلطان محمد آماش الذي تتلمذ عليه وأصبح من مقربيه من أجل حملهم على وقف الحرب داخل إمارتهم وبين قبيلتين من قبائلها، لما في ذلك من التزام بحدود الشرع وتحقيق السلم الأهلي، ولا ينسى كذلك بتبصيرهم بالمخاطر المترتبة على إضعاف الإمارة مما من شأنه فتح شهية المتربصين بها، وقد تكللت تدخلاته بين الأطراف بالنجاح بإيقاف الحرب وجنحت منطقة الحوض للسلم.

كان من أهم نتائج رسالة المخطوط للشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي هو فض الاقتتال والحرب الأهلية في إمارة أولاد أمبارك، لقد سعى كثير من زعماء القبائل والإمارات في موريتانيا إلى التعامل مع علماء كنته

بوصفهم من أهم مصدر للشرعية والمشروعية رغم ما كان من توتر بين حسان (أهل الشوكة) والزوايا (أهل العلم) حيث أحيط العلماء بالإجلال والتقدير، بل يعتبر البعض أن تقارب العلماء والأمراء كان عنصرا تأسيسيا في ظهور الإمارات وتميزها عن غيرها من المشيخات القبلية حيث كان للعالم والشيخ حرم آمن لا يمكن انتهاكه.

صورة من الصفحة الأولى من المخطوط الأصلي

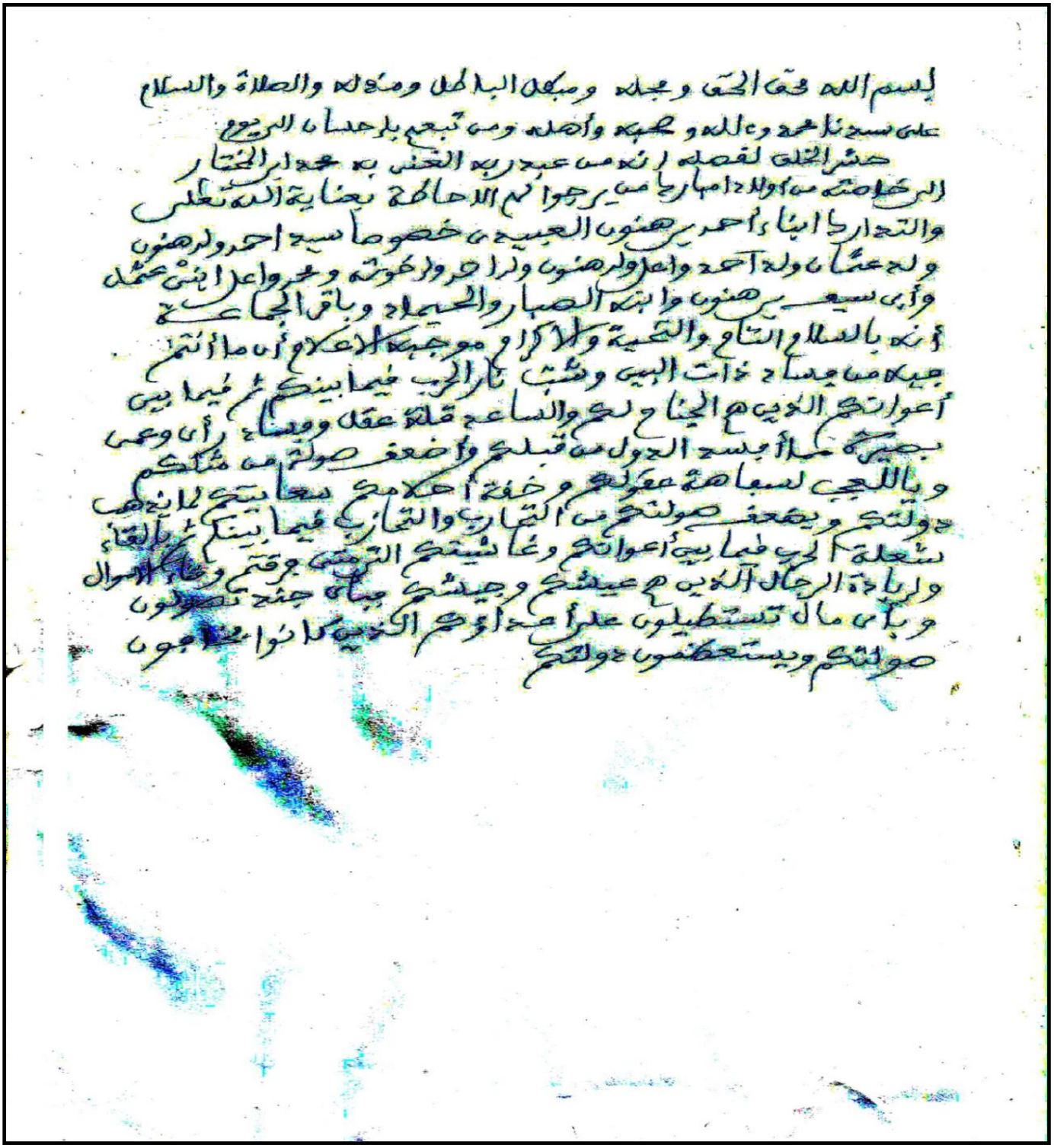

الهوامش:

1- أحمد ولد محمد يحيى، "فعاليات للملتقى الدولي الأول حول المخطوطات الموريتانية المنظم بالتعاون مع اليونسكو" (**"التراث المخطوط في موريتانيا"**)،2002م، ص83.

2- الشيخ سيد المختار ولد أحمد الكنتي، **الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد**، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 935 ك ، ص 455.

3- الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي، **الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد**، مخطوط، الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم690، ص162.

4- الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي، **جنة المريد دون المريد**، تحقيق: محمد المهداوي، منشورات الرابطة المحمدية،2012م، ص21.

5- بول مارتي، **كنتة الشرقيون**، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد ابن ثابت، دمشق،1985م، ص79.

6- المرجع نفسه ص79.

7- الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط**، تونس، 1987م، ص 516.

8- الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي، المصدر السابق، ص 141.

9- بول مارتي، المرجع السابق، ص82.

10- الشيخ سيد المختار الصغير بن الشيخ سيد محمد الخليفة، **الرسالة العلوية**، تحقيق: سيد احمد ولد أحمد السالم، نواكشوط، 1994، ص 5 – 6.

11- ابوبكر بن أحمد المصطفى المحجوبي الولاتي، **منح الرب الغفور فيما أهمله صاحب فتح الشكور**، تحقيق: الهادي الدالي المبروك، ص 69

12- الشيخ سيد المختار الصغير، المصدر السابق، ص ص 30، 31.

13- خير الدين الزر كلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط 17، 2007، جزء7، ص 92.

14- بول مارتي، المرجع السابق، ص 82.

15- ابن انبوجه التيشيتي، **ضالة الأديب**، تحقيق: أحمد ولد الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1996م، ص 183

16- الحسين ولد محنض، **تاريخ موريتانيا الحديث**، دار الفكر، نواكشوط، موريتانيا، 2010م، ص161.

17- احمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، القاهرة، ط 1، 1911 م، ص ص 464- 465.

18- بول مارتي، القبائل **البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني**، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، دار السراج، بيروت ،2005م، ص359.

19- المرجع نفسه، ص 360.

20- حماه الله ولد السالم، **تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2007م، ص197.

21- محمد صالح بن عبد الوهاب، **الحسوة البيسانية في معرفة الأنساب الحسا نية**، تحقيق: الحسن بن إبراهيم ولد صالح، المطبعة الجديدة، نواكشوط، 1993م، ص ص 64-65.

22- المصدر نفسه، ص 65.

23- حماه الله ولد السالم، مرجع سابق، ص199.

24- محمد صالح بن عبد الوهاب، المصدر السابق، ص65.

25- حماه الله ولد السالم، المرجع السابق، ص200.

26- الحسين ولد محنض، المرجع السابق، ص168.

27- حماه الله ولد السالم، **المجتمع الأهلي في موريتانيا**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 ،2008م، ص352.

28- الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار،"**رسالة إلى أولاد أمبارك "أبناء أحمد بن هنون العبيدي**"، (مجموع رسائل الشيخ سيد محمد الخليفة لزعماء الحوض)، من دون تصنيف أو ترقيم، محفوظة بمركز الشيخ سيد المختار للوثائق بغاو، مالي.

29- الشيخ سيد محمد الخليفة ، نفس الرسالة، من دون تصنيف أوترقيم.

30- يعني بها القبائِل التي داخل الإمارة.

31- نفس الرسالة، من دون تصنيف أو ترقيم.

32- عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001م، ص334.

33- الخليل النحوي، المرجع السابق، ص 101.

34- المرجع نفسه، ص 105.